برنامج [قـرآنـهـم] - الحلقة (12)

السبت : 21 شهر رمضان 1438هـ / الموافق : 2017/6/17م

✤ وصلنا إلى الآية 35 {يا بني آدم إمّا يأتينكم رسلٌ مِنكم يقصّون عليكم آياتي فمَن اتّقى وأصلحَ فلا خوفٌ عَليهم ولا هُم يَحزنون} الآية 36 {والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} تُكمِلُ سِياق ما قبلها مِن الآيات الكريمة وتتحدّث عن عنوان كان أساساً في قصّة أبينا آدم، وهو: الإستكبار.. إبليس الذي قاده استكباره إلى ما قاده إليه.

ومرّ الحديث في معنى الآيات.. فالآيات في أصلها هي مَظاهر الإسم الأعظم.

الإسم معناه : العَلامة والسِمَة التي تُميّز صَاحبها عَن غيره.. والإسم الأعظم: هو العَلامة الأعظم التي خَلَقها اللهُ سُبحانه وتعالى.. والإسْم الأعْظم هو الآية الأعظم، ولهذهِ الآية آياتٌ وتلك هي الأسماء التي أشرقتْ مِن الإسم الأعظم، ولِهذه الآيات مَظاهر (مظاهر التكوين) فكلّ ما في الكون مردّه إلى الأسماء الحُسنى.

■ {والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} هذا الاستكبار إنعكاسٌ للاستكبار الإبليسي الذي تَرتّب ما ترتّب عليه من آثار في حياة الإنسان على وجه الأرض. كما أنّ الأمور بِخَواتيمها، فإنَّ الخواتيم بداياتها.. الأسس هي التي ستُعطينا النهايات.

إذا كانت الأسس سليمة فالنهاياتُ سليمة، وإذا كانتْ الأسسُ مُختلّةً فالنهايات مُضطربةٌ ومُختلّة.

■ {فمَن أظلمُ مِمّن افترى على اللهِ كذباً أو كذَّبَ بآياتهِ أُولئكَ ينالهم نصيبهُم مِن الكتاب حتّى إذا جاءَتهُم رُسُلنا يتوفَّونَهم قالوا أينَ ما كنتم تدعون مِن دُون اللهِ قالوا ضلّوا عنّا وشهدوا على أنفسهم أنّهم كانوا كافرين}. هذهِ الآيةُ ترتبط بما قَبلها مِن آياتٍ.. وقد مَرّت علينا الآية 33 وهي تشتملُ على أصول المعاني التي تفرّعتْ عليها هذه الآية.. ففي الآية 33 جاءتْ هذه المضامين: {قل إنّما حرّم ربّي الفَواحش ما ظَهَر مِنها وما بَطن والإثمَ والبَغي بغيرِ الحقّ وأن تُشركوا باللهِ ما لم يُنزّل به سُلطاناً وأن تقولوا على اللهِ ما لا تعلمون}

ومرّتْ الإشارة إلى أنَّ أقوى مَراتب الشِرك التي تَتحدّثُ عنها هذهِ الآية هي: ادّعاءُ الإمامة.. والمُراد مِن ادّعاء الإمامة: مَن يأتي فيدّعي إمامةَ آل مُحمّد صلواتُ اللهِ عليهم وهو لا صِلة لهُ بهذا الموضوع لا مِن قريبٍ ولا مِن بعيد!

• وكذلك الإيمان بمُدّعي الإمامة.

• وتنصيبُ الأمّة لإمام تُوكل أمرها إليه، وإنْ لم تُنصبّه في مقام الإمام مِن آل محمّد.

• واتّباع الأمّة لهذا الإمام الذي نصبته!

هذهِ الصُور هي أخطرُ معاني الشِرك في ثقافةِ آل مُحمّد صلوات الله عليهم وهي أخطرُ معاني الافتراء وأخطرُ معاني التكذيب.

فهذا الذي يدّعي الإمامة هذا يفتري على الله ويُكذّب ما يُريده اللهُ وجعل نفسهُ شريكاً لله في نَصْب إمامٍ واختيار إمام.. وجعلَ الإمامةَ لنفسهِ كذباً وزوراً وافتراءً ودجلاً.. وذاك الذي يُؤمن به ويُتابعه هو على نفس الشاكلة، وقد يكون أسوأ وأسوأ..!

• الأمّة حين نَصبتْ إماماً صارتْ مُشركةً فقد جعلتْ نفسها شريكاً لله في نَصْب الإمام واختياره.. وهي بعْد أن نَصبتْ الإمام أطاعتهُ وسَلّمتْ أمرها إليه.. فالأُمّة أشركتْ مرّتين:

• أشركت حين جَعلتْ نفْسها شريكاً للهِ في اختيار الإمام وتنصيبه.

• وأشركتْ في طاعة الله حينما أشركت مع الله في طاعتهِ شريكاً لا يعرفه الباري شريكاً له.

فالآية 36 تتحدّث في هذه الأجواء.. كُلّ هذه الصور تكذيبٌ لآيات الله سُبحانه وتعالى.

● {أُولئكَ ينالهم نصيبهُم - أي حظّهم - مِن الكتاب} الكتاب هنا هو القانون، هو الكتاب التدويني أي (ما كَتَبهُ اللهُ مِن سُنن) إنّها سُنن التكوين والتقدير والتدبير.. وليس كِتاباً مَكتوباً على الورق.. فهُناك تَقديرٌ يُسجَّل في اللّوح المَحفوظ، وهُناك تدبيرٌ يَجري في كُلّ عالم بحسبه.

ففي هذهِ المَنظومة التي عُبّر عنها بـ(الكتاب) في هذهِ القوانين هناك شيء يَجنيه هذا الإنسان بِحسب هذه القوانين (نتيجةٌ، حَظّ، ربح، خسارة... سمّي ما شِئت).

● {حتّى إذا جاءَتهُم رُسُلنا يتوفَّونَهم} هؤلاء الرُسل جندُ ملك المَوت وأعوانهِ.. فملكُ الموت لهُ جندٌ وأعوان.. إنَّه لا يُباشر أمرَ الموت بنفسه.. يمتلكُ مِن الأعوان ومِن الجنود العاملين تحتَ يده أعداداً كثيرة.

وإنّما يُباشر ملكُ الموتِ أمر الموت بنفسه في حالاتٍ خاصّة تحدّثتْ عنها كلماتُ المعصومين.. وإلّا فالذين يُباشرون إماتةَ الناسِ هم أعوانه.

● أمّا قولهِ {يتوفَّونَهم} الوفاةُ والوفاء هو التسديد.. كما يُقال للذي يُسدّد ديونه بأنّه قد وفّى دُيونه، وكما يُقال للثوب الذي يُغطّي تمام البدن وليس فيه من عيب ثوبٌ وافٍ.. وكما يُقال أيضاً للذي يُخلِصُ في علاقتهِ ويُفعّلُ عَمَلاً ما وعد به أنّهُ كان وفيّاً لأنّه قد غَطّى ما عليه.. خَيّريّتُهُ قد غطّتْ على كُلّ عيبٍ فليس فيه مِن عيب.. فقد وفى ووفّى.. ومن هنا يأتي معنى الوفاة: أنّ أعوانَ ملك الموت يَعودون بالروح مِن هذا الجسد ومِن هذه الدنيا كاملة.. تعودُ الروح كما بُعثتْ في هَذا الجسد.. لا تبقى لها بقايا..الملائكة يأخذونها بتمامها وكمالها.. هذا من جهة.

ومن جهة ثانية: فإنّ الأجل المُسمّى وَعْدٌ لابُدّ أن يكونَ للأطراف المُرتبطةِ به، لابُدّ أن يكون لهم مِن وفاءٍ كامل.. فأعوانُ ملك الموت يأتون على المَوعد، والإنسان على الموعد يموت لا يستطيع أن يُقدّم أو يُؤخّر.. ومرّ الحديث عن هذا الموضوع {ولكلّ أمّةٍ أجل فإذا جاءَ أجلُهم لا يَستأخرونَ ساعةً ولا يَستقدمون}. هذا الأمر ينطبق على الأُمم إذا ما قُدّر لها أمْرٌ جَمعي.. وينطبقُ على الأفراد إذا ما قُدّر لكلّ فردٍ ما يتعلّق به.

● {أينَ ما كنتم تدعون مِن دُون اللهِ} هذا الذي نَصبَ نَفْسهُ إماماً يُقال لهُ: أينَ ما كُنتَ تدعو مِن دون الله.. فإنّه كان يعبدُ نفسه، وأولئك الذين تابعوه كانوا يعبدون شريكاً مِن دون الله.. والأمّة التي نَصبتْ لها إماماً وهكذا.. وحتّى هذا الذي ادّعى الإمامة سيعيشُ ضَلالاً، سيضلُّ عن نفسهِ بنفسه! هذا الحديثُ هو عند الوفاة.. ومرّ في سُورة الأعراف حديثٌ عن الأمم حين يأتيها العذابُ ويأتيها الجزاءُ في نهارها أو في ليلها: {وكم مِن قرية أهلكناها فجاءها بأسُنا بياتاً أو هُم قائلون * فما كان دعواهم إذْ جاءَهم بأسُنا إلّا أن قالوا إنّا كُنّا ظالمين}. تلك هي لحظة الحقيقة.. لحظة الصدق.. هنا ينطقُ وجدان الإنسان ووجدان الأمّة، إن كانت الأمّة ناطقةً هنا. والمعنى هو هو في الآية 37 عند وفاة الإنسان.. هي لحظةٌ حقيقة لا يستطيع الإنسان أن يُنكرها أو يفرّ منها.. نحن بانتظارها ولكننا نتغافل، وهي بانتظارنا ولكنّها لن تغفل.. وأعوان ملك الموت بانتظار الموعد كي يأتوا إلينا.

● {فمَن أظلمُ مِمّن افترى على اللهِ كذباً أو كذَّبَ بآياتهِ} مصداق آخر ونحنُ في برنامج لتفسير القرآن.. مَن يُفسّر القرآن مِن عنده من دُون قواعد وضَوابط ومن دُون بيانات ومن دُون أصول مِن أصحاب هذا الكتاب (محمّدٌ وآل محمّد صلواتُ الله عليهم). فمن فسّر القُرآن من عند نفسهِ أو بحسب ضَوابط وقواعد ومنهجية مَن خالف أصحاب هذا القُرآن، إنَّه يفتري كذباً على الله! افتراءٌ واضح وكذبٌ واضح على الله وعلى آل الله، فهو يفتري الكذب على الله، وفي نفس الوقت يُكذّب آيات الله التدوينية.. ويُكذّب آيات الله (مُحمّدٌ وآل محمّد) حيث أنّه يقول شيئاً بخلاف قَولهم. (مِصداقٌ واضح لِمن يُفسّر القرآن بعيداً عن منهج آل محمّد).

● {ينالهم نصيبهُم مِن الكتاب} جانبٌ مِن القوانين والسُنن التي تَحكمُنا هو: قانون التوفيق والخذلان.

هذا القانون هو الذي يحكمنا.. ومُلخّص هذا القانون هو:

أنّ العمل الصالح يقودنا إمّا إلى عملٍ صالح، أو أنّه يَمنعُنا عن عملٍ طالح.

والعمل الطالح إمّا أن يقودنا إلى عملٍ طالح أو منعٍ من عملٍ صالح.

وبالمِثل: المعلومة الحَقيقية إمّا أن تَقودنا استنتاجاً إلى معلومة حقيقيةٍ صادقة أخرى.. أو أن تَمنعنا عن أن نعتقد بمعلومة معلومةٍ ضالّة، والمعلومة الضالة الكاذبة الجاهلة إمّا تقودنا استنتاجاً إلى معلومة ضالة كاذبة .. أو أنّها تَحول فيما بيننا وبين أن نصِل إلى معلومة صحيحة، فقانون التوفيق والخذلان يجري فيما تقوم بهِ جوارحنا وفيما تقوم به جوانحنا..

الجوارح تُمثّل الحِراك المادي الفيزيائي للإنسان.. وأمّا الجوانح فإنّها تُمثّل الحِراك المَعرفي، الحِراك العاطفي الوجداني.

● {قالوا ضلّوا عنّا} لا نستطيع أن نصلَ إليهم، وهم لا يستطيعون أن يصِلوا إلينا.. ولا ندري كيف وبأي طريقة نتواصل معهم.. نحنُ نعيشُ حالةً مِن الضلالةِ والتيه. (رحم الله عرف من أين وإلى أين).. هذا المعنى لن يصدق إلّا في حالة واحدة (حين نعرف إمام زماننا).

■ في الآية 38 من سورة الأعراف بعدما تحدّثت الآية السابقة عن حال أولئك المُكذّبين المُفترين (عن حال أولئِكَ المنافرين لعليّ وآل عليّ) وقد شهدوا على أنفسهم عند لحظة الحقيقة، ولحظة الصِدق حينما جاء أعوان وجُند مَلَك الموت الآية تقول: {وشهدوا على أنفسهم أنّهم كانوا كافرين}

● {قال ادخلوا في أُمَمٍ قد خَلتْ - أي مضتْ - مِن قبلكم مِن الجنّ والإنس في النار كلّما دخلتْ أُمّةٌ لعنتْ أُختها حتّى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالتْ أُخراهم لأُولاهم - أي أسمعوهم - ربّنا هَؤلاءِ أضلّونا فآتهم عذاباً ضِعْفا مِن النار قال لكلّ ضعف ولكن لا تعلمون} قولهِ {قال ادخلوا} القائلُ هنا هو الحاكمُ الذي يُحكم في القيامة.. هذه صورة من صور القيامة، والحساب سيكون بِحسب تراتب الأجيال.. صحيح أنّه سيصِل إلى الجميع في آن واحد كما بيّن أمير المؤمنين عليه السلام حين يقول: (إن الله يُحاسب العباد كما يرزقهم) مِثلما أنّ الأرزاق تَصِلُ في وقتٍ واحد. كالهواء يِصل إلى الجميع في وقتٍ واحد.. وهكذا جميع أنواع الرزق، فإنّ الله يُحاسب العباد كما يرزقهم، وكُلٌ يصِل إليه حسابه.. ولكن الحساب هو أيضاً له مَراتب ولهُ مقامات.

● {قال ادخلوا في أُمَمٍ قد خَلتْ} الذي يُقسّم الناس بِحسب ثقافة أهل البيت إلى الجِنان وإلى النيران هو: قسيمُ الجنّة والنار: عليّ بن أبي طالب صلواتُ الله وسلامه عليه.

● {كلّما دخلتْ أُمّةٌ لعنتْ أُختها} لم يتبرّؤوا منهم في الحياة الدنيا.. الآن يُريدون أن يتبرّؤوا منهم..!

والّلعن شعارٌ وعنوان أيضاً يُشير إلى العدَاء فيما بينهم في نار جهنّم.. فجهنّم ليستْ نارٌ كنار الدُنيا.. جهنّم عالمٌ تعيشُ فيه هذه المَخلوقات وهذه الأمم. الذين يدخلون إلى جنَّهم لن يموتوا.. وسيأكلون ويشربون، ولكن سيأكلون ما يتناسب وجهنّم! شجرة الزقّوم تنمو في جهنّم، ولها ثمار.. فجهنّم عالمٌ فسيحٌ واسع فيه طعام وشراب ولباس (سرابيل القطران) هذا العالم الفسيح الواسع ستعيش فيه هذهِ الأُمم.

عالمٌ فيه مساكن، فيه مراتب، فيه درجات... وليستْ كهذا التصوّر الساذج الذي يتصوّر أنّها نار تُحرق ما يَدخل فيها وينتهي أمره.

● {حتّى إذا ادّاركوا فيها جميعاً} ادّاركوا أي أدرك المُتأخّر السابق.. (أي اجتمعوا معاً).

● {فأتهم عذاباً ضِعْفا مِن النار} ضاعف لهم العذاب لأنّ هؤلاء هم السبب في ضلالنا.. شقّوا لنا الطريق.

● {قال لكلّ ضعف ولكن لا تعلمون} لأنّ كُلّ أمةٍ مشغولةٌ بعذابها وحسابها، وهكذا كلّ فردٍ مشغولٍ بعذابهِ وحسابه.. {لكلّ امرئٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه} هذه الحالة تكون في الحساب وتكون في العَذاب.

■ {وقالتْ أُولاهم لأُخراهم فما كان لكم علينا مِن فَضْل فذوقوا العَذاب بما كُنتم تكسبون} ما أنتم فيه هو من أيديكم، وليس بسببنا، فنحنُ كُنّا في عصرٍ قبل عصركم، فلماذا لم تُدركوا أنفُسكم؟!

■ {إنّ الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفتَحُ لهم أبوابُ السماء - لا في الدنيا ولا في الآخرة - ولا يَدخلونَ الجنّة حتّى يلِجَ الجَملُ في سَمّ الخِياط - ثَقْب الإبرة - وكذلك نَجزي المُجرمين}. هنا التعبير {لا تُفتَحُ لهم أبوابُ السماء} هو تَعبير كنائي.. أبواب السماء هي أبواب الخَير، هي أبواب الطُهر، هي أبواب القُرب من الله تعالى. وأبواب السماء هي عنوانٌ لتلك الرحمة التي فُتحتْ أبوابها، ولكنّ الناس هُم الذين أعرضوا عن هذه الأبواب المفتوحة لهم وذهبوا يبحثون في المزابل والقاذورات..! وأبواب السماء لا حدود لها.. أبواب السماء تأتي مِن عندها جميعُ أنواعِ الأرزاق ويأتي الفَيضُ منها بجميع مراتبه. ومطر الرحمة والرأفة والفَضْل والهُدى يتدفّقُ مِن هذه الأبواب.

● {ولا يَدخلونَ الجنّة حتّى يلِجَ الجَملُ في سَمّ الخِياط} تعبير فيه شيءٌ من السُخرية بهم.. وفيه شيءٌ مِن بيان أنّهم لن يدخلوا الجنّة حتّى يتحقّق هذا المعنى: أن يدخل الجمل (هذا الحيوان الكبير) في ثقب الإبرة..! وهذا مُحال بالحسابات الدنيوية، سَمّ الخياط: السَمّ، هو الثَقْب والخياط إشارة إلى الإبرة.

■ {لهم مِن جَهنّم مهادٌ ومِن فَوقهم غَواشٌ - أغطية جهنّمية - وكذلكَ نَجزي الظالمين} هؤلاء ظالمون، هؤلاء مُستكبرون، كذابون افتروا الأكاذيب على الله، كذّبوا بآياتِ الله.. ما من سيّئة إلّا وقد جُمعت فيهم.

● {لهم مِن جَهنّم مهادٌ} المِهاد هُو ما يُوضع تحتَ الإنسان، ولِذلك يُقال عن فِراش الطفل الذي يُمهَّد له هو مَهْد الطِفل.. أمّا الغوَاش فهو ما يَتغشّى ويَتغطّى به الإنسان.. فهؤلاء المُجرمون فراشهم جهنّميٌ وأغطيتهم جهنّمية (فجهنّم عالمٌ فسيح).. علماً أنّ هذا الجزاء لهم ليس من الله من دون سبب.. وإنّما الإنسان بظلمهِ أوجد هذا الجزاء.

● {وكذلكَ نَجزي الظالمين} الظالم بظلمه يُظَلّم حياةَ الذي يُظلمه، وفي نفس الوقت يُظَلّم عقله وقلبه.. الظُلم ظُلمات. الظالم يسلبُ الضوء والنور من عقله وقلبه.. وفي نفس الوقت يسلب الضوء مِن حياة الذي يظلمه. (الظالم لربّه، الظالم لغيره، الظالم لنفسه). كُل معاني الظلم هي عملية سلبٍ للضوء ولكن في كلّ مَرتبةٍ بِحسبها، وفي كُلّ نوع ظُلْم بما يتناسبُ معه (مع الجهة التي تُظَلم، ومع نوع الفِعل أو القَول أو النيّة) بِحسب حَدَث الظُلم وكينونتهِ (هل هو ماديٌ أم معنوي) ولكن بالنتيجة: الظُلمُ ظُلماتٌ وهو سلبٌ للضوء بكلّ معانيه. (فالضوء عنوانٌ لفاعلية الحياة.. وهو عنوانٌ لفاعلية الحركة والنشاط.. والضوء عنوانٌ لحركة الإنسان باتّجاه ما يُكمّل نقصه).

فأولئك الظالمون بأعمالهم هذه يَبنونَ لهم ظَلاماً في جَهنّم.. مهادٌ جهنّمي، وغِطاءٌ جهنّمي.. ظُلماتٌ فوقها ظُلمات، وعذابٌ يستبطِنُ عذاباً.

● أعود بكم إلى الآية 40 من سورة الأعراف.. أريد أن أقف عند هذه الآية خصوصاً عند هذا التعبير: {حتّى يلج الجمل في سمّ الخياط} متى ما ولج الجملُ في سَمّ الخِياط فإنَّ أولئك سيدخلون الجنّة! الهدف من وقوفي عند هذا المقطع من هذه الآية الكريمة هو أنّي أُريد أن أُريكم كيف تعاملتْ الأُمّة (سُنّة وشِيعة) مع القرآن الكريم. هناك تنزيلٌ وهناك تأويل..

وهذا الحديث موجود عند السُنّة وعند الشيعة، وخطابي مع الشيعة فقط.. النبيّ صلّى الله عليه وآله يُخاطب علياً، فيقول: (ستُقاتلهم على التأويل كما قاتلتهم على التنزيل) فهناك تنزيلٌ وهناك تأويل. وليس المُراد مِن التأويل هنا هو أُسلوبٌ لفهم القرآن.. نعم في مرحلة التأويل جُزءٌ من هذه المنظومة طريقةُ فهم القرآن.. ولكن قول رسول الله: (لقد قاتلتُهم على التنزيل) فهل قاتلهم النبي على البناء اللّفظي للقُرآن فقط..؟ أمّ أنّ النبي قاتلهم على الدين بكلّ تفاصيله؟! على منظومة الدين؟! النبي قاتلهم على القُرآن وقاتلهم على النُبوَّة بكلّ تفاصيلها، فالقرآنُ جزءٌ من النبوّة.. في مَنظومة الدين (هُناك النبيّ وهناك القرآن).. كما أنّه في منظومة التأويل هناك (العترة وهناك القرآن).

في زمن النبي هناك نبيٌ وهناك القرآن.. تلك هي مرحلة التنزيل. أمّا مرحلة التأويل والتي بدأت بعد بيعة الغَدير فيها العترة وفيها القرآن.

● بيعة الغدير كانت بيعةً على بداية مَرحلة التأويل وتفعيلها في وسط الأُمّة.. ولِذا النبّي صلّى الله عليه وآله بعد أن تمّت بيعة الغدير جمع بين الظهرين وجمع بين العِشاءين.. تغيّرتْ مواقيتُ الصلاة وحَدثتْ تغييراتٌ كثيرة.. نحن بدأنا في مرحلة جديدة وهذه بدايات وبوّابةٌ فُتحتْ لِمرحلة التأويل.

• (فالنبي قَاتلَ على التنزيل) المراد من ذلك: الدين بكلّ تفاصيله.

• (وعليٌ سيقاتل على التأويل) المراد مِن ذلك: الدين بكلّ تفاصيله.

● لقد قاتلَ رسولُ اللهِ على التنزيل، على منظومة الدين بكاملها.. وقال لأمير المؤمنين إنّك ستقاتل على التأويل.

والمراد مِن التأويل هنا: أنَّ الدين انتقلَ إلى مرحلةٍ جديدة فلا عودة إلى الوراء. المُخالفون لأهل البيت - وهُم مُخالفون لرسول الله - بقُوا يدَّعون التمسّك بِمرحلة التنزيل.. والحال أنّ مرحلة التنزيل انتهتْ فقد طواها رسول الله، وبدأتْ مرحلة التأويل.

● الشيعة يُفترض أنّهم قد دخلوا في مَرحلة التأويل.. وبدأتْ مرحلة التأويل عند الشيعة بنحوٍ تدريجي في زمان الأئمة ولن يكتمل هذا التأويل إلّا عند ظهور إمام زماننا.. وستأتينا الآية 53 من سورة الأعراف، {هل ينظرونَ إلّا تأويلهُ يومَ يأتي تأويلُهُ يقول الذين نسوهُ مِن قبل قد جاءتْ رُسُل ربّنا بالحق..} سيأتينا الحديث عنها. فيفترض في الشيعة أنّهم في مَرحلة التأويل تتدرّج وتترقّى شيئاً فشيئاً إلى زمان التأويل الكامل عند ظهور إمام زماننا.. ولكن مُشكلة الشيعة هي حيرة علماء الشيعة ما بين مرحلة التنزيل والتأويل.. فقدمٌ في مرحلة التنزيل، وقدمٌ في بعض الأحيان يضعونها في مَرحلة التأويل ثُمّ يسحبونها فيعودون إلى مرحلة التنزيل!

● في مرحلة التنزيل فُهِم القرآن بالذي يتناسب وتلك المرحلة.. وفي مرحلة التأويل هُناك فَهْمٌ جديد للقُرآن، وهذا هو الذي حاربتهُ السقيفة وتَبِعَهم مراجع الشيعة وفُقهاء الشيعة في ذلك!

■ النبي صلّى الله عليه وآله منذ دخولهِ للمدينة ومِن الجُمعة الأولى صَلّى صلاةَ الجُمعة، وفي كلّ صلاةٍ هناك خطبتان للنبي. النبي بقيَ في المدينة مدّة 10 سنوات.. والسنة فيها 52 جمعة، فيكون في 10 عشر سنوات 520 جمعة.. إذا كانت في صلاة الجمعة خطبتان، فهذا يعني أنّ لرسول الله على الأقل 1040 خطبة.. لنفترض أنّ النبيّ في بعض الجُمعات لم يُصلّ صلاة الجُمعة في المدينة ولم يخطب لظرفٍ من الظروف.. يعني لنفترض أنّ نصف هذا العدد من الخُطَب خطبها النبي.. يعني 520 خُطبة (في تفسير القرآن) بتصريح القرآن حين يقول: {ويُعلّمهم الكتاب والحكمة}. إذا كان المُخالفون لأهل البيت لا يعبؤون بخُطب النبي فلم ينقلوها في كُتبهم.. فلماذا لم يروِ لنا الأئمة خُطب النبي..؟

الجواب واضح:

لأنّ تلك الخُطب وتلكَ الأحاديث، ولأنَّ تفسير النبي للقُرآن ما رواهُ لنا الأئمة إلّا لُماماً.. فقد كان يتناسب مع مَرحلة التنزيل.

أمّا في مَرحلة التأويل فقد اشترط رسول الله على الأُمّة أن لا تأخذ التفسير إلّا مِن علي.. هذا هو الشرط الواضح في بيعة الغدير.

● {حتّى يلج الجمل في سمّ الخياط} في مرحلة التنزيل الكلام واضح، الجَمل هو الجمل (أكبر حيوان في جزيرة العرب) وفي لغة العَرَب أكبر حيوان في العُرف العربي هو الجمل، فالجمل هو البعير، وسَمّ الخِياط: هو ثقبُ الإبرة. هذا هو الذي يفهمه العربي حين يقرأ هذا الكلام أو يسمعه.

■ هذا التعبير {حتّى يلج الجمل في سمّ الخياط} قد ورد في الأناجيل أيضاً.. والأناجيل هذهِ سابقة للقرآن الكريم. (ورُغم عدم اعتقادنا بِصحتّها فهذا لا يعني أنّها تخلو من الأشياء الصحيحة). الأناجيل تعرّضتْ للتحريف، وإنْ كان المُتديّنون المسيحيون يَرفضون هذا الكلام.

● وقفة عند إنجيل متّى .. جاء في الاصحاح (19) جاء فيه عند الفقرة 24:

يقول يسوع لتلامذته: (وأقول لكم لئِن يَمرّ الجمل مِن ثقب الإبرة أيسرُ مِن أن يَدخلَ الغَنيّ ملكوتَ الله) هذا الكلام قاله في قصّة الشاب الغني.

● وجاء أيضاً في إنجيل مرقس في الإصحاح (10) في الفقرة (25) جاء فيه: (لئن يَمرّ الجمل مِن ثقب الإبرة أيسرُ مِن أن يدخل الغنيُّ ملكوتَ الله)

● وفي إنجيل لوقا في الإصحاح (18) في الفقرة (25) جاء فيه: (فلأن يدخل الجمل في ثقب الإبرة أيسرُ مِن أن يدخل الغني ملكوت الله)

وهو نفس التعبير الذي جاء في الكتاب الكريم.. وقد أوردتُ ما جاء في الأناجيل فقط لأبيّن لكم أنّ هذا التعبير كان شائعاً.

ولكن حقيقة القرآن هي التي تهمنّا هنا وليس ما جاء في مرحلة التنزيل.

● قطعاً اللّغة الأصلية لِهذه الأناجيل ليستْ العربية.. اللّغة الأصليّة هي اللّغة العربية الآرامية وبعد ذلك تُرجمتْ هذه الأناجيل إلى اللّغة اليونانية إلى أن وصلتْ إلينا باللّغة العربية. هذا الكلام الذي جاء في هذه الأناجيل هو نفسهُ مِن جهة التركيب اللّفظي (هناك جمل وهو الحيوان وهناك ثقب الإبرة).. هذا فهم الآية في مرحلة التنزيل. أمّا فهم الآية في مَرحلة التأويل فهو معنى مُختلف.

● وقفة عند حديث سيد الكائنات في كتاب [إقبال الأعمال] للسيّد ابن طاووس بشأن صَكّ بيعة الغدير: (معاشر الناس تدبّروا القرآن وافهموا آياته ومُحكماته ولا تتّبعوا مُتشابهه، فو الله لا يُوضّح تفسيره إلّا الذي أنا اخذ بيده ورافعها بيدي، ومُعلّمكم إنّ مَن كنت مولاه فهو مولاه وهو عليّ..) إلى أن يقول صلّى الله عليه وآله: (إنّي قد بيّنتُ لكم وفهَّمتُكم: هذا عليٌّ يُفهّمكم بعْدي..). هنا بدأت مرحلة التأويل.. علماً أنّ بيعة الغدير هي بيعةٌ لإمام زماننا. وحين اعترضتْ الأُمّة على هذهِ المَرحلة الذي جَرى هو أن قُتِلتْ فاطمة، وجرتْ الويلات على آل محمّد، ولمّا سنحتْ الفرصة لسيّد الأوصياء أن يُقاتلهم على التأويل قاتلهم - بحسب ما استطاع أن يقوم به - وإلّا فقصّة التأويل طويلة..قصة التأويل نهايتها في مرحلة الرجعة.

هذه هي بيعة الغدير أنّ القرآن تفسيره عند عليّ، وأن نأخذ تفسيره من عليّ فقط.

■ وقفة عند معنى الآية في مرحلة التأويل:

مِن أهمّ الجوامع الحديثية التي جَمعتها الشيعة عن آل محمّد في تَفسير القرآن هو تفسيرُ القمّي (وهو جماعٌ لأحاديث المعصومين يغلبُ عليها أحاديث الباقر والصادق)

● في معنى هذه الآية يقول الإمام الباقر عليه السلام: (قال: نزلتْ هذه الآية في طلحة والزُبير والجمل جملهم). نزلتْ في أهْل الجمل كلّهم بقضّهم وقضيضهم- والجمل الذي ركبته عائشة هو شَيطانٌ تَصوَّر بصورة جمل واسمه: عسكر (هكذا ورد عندنا في الروايات).

● وجاء في [تفسير العيّاشي] عن الإمام الصادق في معنى هذه الآية ، يقول: (نزلتْ في طَلْحة والزُبير والجَملُ جَمَلُهم). نزلتْ هذهِ الآية في زَمن النبي ولكنها نزلتْ لِمرحلة التأويل.. التنزيل كان مُقدّمة لِمرحلة التأويل.. فالقرآن نزل للتأويل. فهذا الذي ذَكَرهُ الإمام هذا هو المَعنى التأويلي.

التأويل هو تَفسيرُ القُرآن الحَقيقي وليس مَعنىً ثانٍ كما يقولون.. التأويل هو إرجاعُ الشيء إلى أصْلهِ.. أي إلى أوَّليّتهِ.. التفسير والتأويل عند أهل البيت بمعنىً واحد.. أمّا هذا التفريق بين التفسير والتأويل فقد جاءنا من المُخالفين. مَن أراد أن يعرفَ تفاصيل أكثر عن مَرحلة التنزيل والتأويل فليراجع برنامج [ملف التنزيل والتأويل] ففيهِ تفاصيل كثيرة فيما يرتبط بهذا العنوان: التنزيل والتأويل. تجدونَهُ على مَوقع زهرائيون، وكذلك على اليوتيوب. ■ الآية 40 وهي تُحدّثنا عن قَوم لا يدخلون الجنَّة حتّى يلج الجَمل في سَمّ الخياط الآية تصفهم وتقول: {إنّ الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها} وعليٌّ يقول: ما للهِ آيةٌ أكبرُ منّي.. عليٌّ هو الآية الكُبرى صلواتُ الله عليه.

هؤلاء أوصافهم أنّهم: مُجْرمون مُكذّبون بالآيات، مُستكبرون، جَهنّميون، مَغضوبٌ عليهم، هؤلاء لا تُفتّحُ لهم أبواب السماء.. هذه أوصافهم.

● وقفة عند حديث سيّد الأوصياء في نهج البلاغة وهو يُحدّثنا عن أصحاب الجمل، يقول في الخطبة رقم 22 حين بلغه خبر الناكثين ببيعتهِ (أصحاب الجمل) قال: (ألا وإنّ الشيطان قد ذَمَّر حِزْبه، واستجلبَ جَلَبهُ - ما يجلب في الأسواق -، ليعودَ الجَور إلى أوطانه، ويرجعَ الباطل إلى نِصابهِ..) فهذهِ الحركة بدأتْ مِن الشيطان.. حركةٌ شيطانية. ثُمّ يقول عليه السلام وهو يتحدّث عن أتباع الشيطان: (اتّخذوا الشيطانَ لأمرهم مِلاكاً، واتَّخذهُم لهُ أشراكاً، فبَاضَ وفرَّخ في صُدُورهم، ودَبَّ ودَرَجَ في حُجُورهم، فنَظرَ بأعينهم، ونطَقَ بألسنتهم، فركِبَ بهم الزَلَل، وزَيَّن لهم الخَطَل، فِعْل مَن قد شَرِكَهُ الشيطان في سُلطانه، ونَطَق بالباطلِ على لسانهِ)

الذي فعله هؤلاء: أولاً أنّهم نقضوا بيعة الغدير عسكرياً، فشهروا السلاح في وجه أمير المؤمنين.. وكذلك نقضوا بيعة الغدير قُرآنياً حِين فسّروا القرآن بحسب ما يُريدون ولم يأخذوا تفسير القرآن مِن عليّ.. ورفضوا الدخول في مَرحلة التأويل؛ ولِذلك قال رسول الله

لسيّد الأوصياء: (ستُقاتلهم على التأويل كما قاتلتُهم على التنزيل، وإنّك ستُقاتِل الناكثين والقاسطين والمارقين) وهؤلاء الذين كانوا في واقعة الجمل في البصرة هَؤلاء هم الناكثون.

■ وقفة عند كتاب [الجمل والنصرة لسيّد العترة في حرب البصرة] للشيخ المفيد.. يقول الشيخ المفيد: (حتّى دنوا - أي عائشة وأتباعها - مِن عسكر أمير المؤمنين وألقتْ عائشة على نفسها بُردة كانتْ معها وقلبتْ يمينها على منكبها الأيسر والأيسر إلى الأيمن كما كان رسول الله يصنع عند الاستسقاء ثمّ قالت ناولوني كَفاً من تراب فناولوها، فحثتْ به في وجوه أصحاب أمير المؤمنين وقالت: شاهتْ الوجوه كما فعل رسول الله بأهل بدر..) إلى أن يقول الشيخ المفيد: (ولمّا فعلتْ عائشة ما فعلتْ مِن قلْب البُرد وحصب أصحاب أمير المؤمنين بالتراب، قال أمير المؤمنين: وما رميتِ إذ رميتِ يا عائشة ولكن الشيطان رمى) . فعل عائشة كان تأويلاً بحسب ما تُريد.. أرادتْ أن تفعل ما كان في التنزيل في زمان النبي ولكن بحسب ما تُريد، فخالفتْ سيّد الأوصياء في التأويل.

■ وقفة عند كلام سيّد الأوصياء في المقطع (13) وهو يُخاطب أهل البصرة يقول: (كُنتم جُند المرأة وأتباع البهيمة - يُشير إلى الجمل - رَغَا فأجبتُم وعُقِر فَهَربتُم). فمُشكلة الذين حضروا في الجمل - بحسب القرآن - مُشكلتهم أنّهم نقضوا بيعة الغدير عسكرياً وعلمياً ورفضوا مرحلة التأويل.

مُفسّرونا وعلمائنا فعلوا نفس الشيء.. فلا أثر لأحاديث أهل البيت في تفاسيرهم..

● بقيّة الحديث في حلقة يوم غد.. وهي حَلقة مُهمّة جدّاً؛ لأنّنا سَنرى بأمّ أعيننا كيف تعاملتْ السقيفة وأتباعها وكيف تعامل مراجع الشيعة وعلماؤهم مع الكِتاب والعِـترة.